

يافا.

في الايام التالية، قام العرب باغارات على المستعمرات القريبة من مدنهم ودمروا بعضها. واصطدمت الشرطة مع الثائرين في يافا فقتلت إمام احد المساجد وعبداً آخرين. وفي صدف، خرج الناس من المسجد وهاجموا الحي اليهودي وراحوا يخلعون ابواب المحلات التجارية ويشعلون النار فيها، فقامت الشرطة، آنذاك، بنقل اليهود، وخصوصاً النساء والاطفال، الى دار الحكومة، حيث بقوا ثلاثة ايام. ثم استقدمت الشرطة نجدة من خارج المدينة، واشتبك الجميع مع العرب الثائرين واسقطوا قتلى وجرحى. أخيراً، تمكنت القوات البريطانية من قمع الانتفاضة واعتقلت السلطة الكثيرين، وحاكمتهم، وأعدمت البعض وسجنت آخرين. لكن، بعد هدوء الحالة في صدف، اعتصم عدد من شبانها بالجبال، لأكثر من عام، وراحوا يزعمون سلطة الانتداب.

في الثلاثينات، دخل عامل جديد الى العمل الوطني الفلسطيني، هو بروز نجم الشيخ عز الدين القسام. وهو سوري من جبلة، درس في الأزهر، في القاهرة، وكان من اساتذته الشيخ محمد عبده. وبعد رجوعه الى سوريا، مارس الوعظ والتدريس، وسرعان ما ظهرت لديه دوافعه الوطنية، فاشترك في مطلع العشرينات مع الشيخ صالح العلي في الثورة ضد الفرنسيين، وحكمت عليه المحكمة العسكرية الفرنسية بالاعدام، ففرّ الى حيفا سنة ١٩٢٢ واستوطن جامع النصر ودرّس في المدرسة الاسلامية، ثم صار خطيباً لجامع الاستقلال في حيفا، ومأذوناً.

وشياً فشيئاً، اخذ الشيخ القسام يعمق علاقاته بالناس وبالمجتمع، ويهيئ الجولكي بيني منظمة سرية مسلحة. وبنى، أخيراً، منظمة، لم تخلف وثنائق كافية لا عن مدى اتساعها ولا عن مراحل نشوئها؛ وانما المعروف عنها انها كانت تتألف من حلقات مفصولة عن بعضها وتلتقي، في الذروة، به نفسه. اما اعضاؤها، فكان مطلوب منهم تأمين سلاحهم ودفع اشتراكات من اجل النفقات العامة والحصول على المزيد من الاسلحة.

في البداية، قامت المنظمة بسلسلة من العمليات الخاطفة ضد المستعمرات الصهيونية وضد الدوريات البريطانية؛ وتوزعت الاشتباكات في قرى عديدة، مما أثار القلق لدى الصهيونيين وسلطة الانتداب على السواء، ولا سيما ان المقاتلين كانوا غير معروفين، يظهرون ويختفون كالأشباح. وبعد اكثر من سنتين على بدء العمليات اي في العام ١٩٣٥، قرر القسام الثورة العلنية من اجل رفع معنويات الجماهير ومن اجل تكذيب الاشاعات التي روجتها سلطة الانتداب والتي زعمت ان اعمال القساميين إجرامية وغايتها النهب.

وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥، عقد اركان المنظمة القسامية، في حيفا، اجتماعهم الهام الذي قرروا فيه الخروج الى الجبال والثورة، وهبوا كلهم الى تنفيذ القرار واختاروا ان يتوزعوا في احراج يعبد (قضاء جنين). لكن البريطانيين عرفوا بتحركات القساميين، او ببعضها على الاقل، فحاصروا الاحراج بقوات كبيرة راحت تناوش الثوار اياماً، ثم وقعت المعركة الكبرى في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥، واستمرت ضارية، قبل الظهر وبعده، فاستشهد الشيخ القسام وعدد من رجاله وجرح وأسر آخرون، واستطاع بعض المقاتلين اختراق الحصار والوصول بجثة القسام الى حيفا.

أثار استشهاد القسام ضجة كبيرة في كل انحاء فلسطين، واكتظت حيفا بالوفود القادمة